

## بوذا فيلسوف الأخلاق القرن السادس ق. م.

ليست ديانة، وإنما هي فلسفة أخلاقية، وطريقة حياة، وآداب البوذية للسلوك وفن، تعتمد على التأمل في حياتك كإنسان لتكتشف أن هذه الحياة في حقيقتها أمراض وأوجاع وآلام وموت وحزن، وبالتالي تعمل على خلاص نفسك وتطهر قلبك من الشر، وتعمل الخير، وتبتعد عن المظاهر العابرة والخدعة للحياة..

أما (جوتاما بوذا) فلم يكن نبيا أو إلها وإنما هو إنسان عادي، سليل الأمراء، نبيل الأصل، ولد في فمه ملعقة من ذهب، وعاش طفولته في القصور بين الخدم والحشم، لكنه عندما بدأ وعيه كإنسان رفض كل مظاهر الترف والحياة الناعمة، وترك القصر ليطلب من الناس قوت يومه ويحيا حياة بسيطة فقيرة، ومن عجب أن بعض أتباعه وتلاميذه اعتبروه رسولا وإلها وهو الذي كان ضد الطقوس والشعائر والكهنوت. ولد (سيدذارتا سدووانا جوتاما بوذا) قبل ميلاد السيد المسيح بستة قرون في شمال الهند بالمنطقة المعروفة باسم مقاطعة بهار، وكان والده من أعيان مدينة «كابيلافاستو» الأثرياء، أو من أمرائها ورئيس قبيلة شاكياس، من أبناء طبقة المحاربين، أما والدته السيدة «مايا»

فقد رحلت بعد مولده بسبعة أيام. واهتمت به خالته التى أصبحت بعد ذلك الزوجة الثانية لأبيه، ومعنى اسمه الأول «سيدذارثا» الذى بلغ أمه، واسم أسرته أسرة جوتاما. أما بوذا فمعناها المستنير، وكان وارثا إمارة أبيه.

حاولت الأساطير أن تخلق من بوذا قبل مولده بطلا خرافيا قويا يتحدث فى طفولته وتتحطم أضدم المعابد عند زيارته لها، وتغنى الملائكة أثناء ولادته وغير ذلك من المعجزات والأحداث غير الطبيعية، يحدث هذا مع أن الرجل كان ضد الخرافات والجهل والأساطير، ومع العقل والتفكير السليم.

عاش جوتاما بوذا طفولة سعيدة، فهو الأمير الشريف النسب، المنحدر من سلالة الفاتحين الآريين، جميل الصورة. جذاب المحيا، حلو الحديث، هادئ الطبع بسيط العاملة، شيب وترعرع وسط مظاهر الترف والنعيم، وقد ورد فى بعض الكتابات البوذية حديث على لسانه قال فيه: (لقد كنت مترفا أيما النساء مترفا كل الترف وبلغت الغاية فى الترف. لقد حفرت فى قصر أبى البرك المغطاة بنبات البشنين، وغطيت واحدة منها بالبشنين الأزرق والثانية بالبشنين الأحمر والثالثة بالبشنين الأبيض. وكلها حفرت لمتعتى ولأجل خاطرى ولم أكن أستعمل إلا خشب الصندل من نتاج نبارس، وكانت ملابسى من القماش المصنوع فى ذلك البلد وكذلك قدمت أقمصتى ومجسداتى ومعاطفى. وكانت تظللنى على الدوام مظنة بيضاء حتى لا أتعرض للبرد أو لحرارة الشمس أو للغبار أو للأعشاب أو العدى. وكانت لى قصور ثلاثة؛ واحد

منها لفصل الشتاء والثاني لفصل الصيف والثالث للفصل المطير. وكنت أقضى فى الفصر المخصص للفصل المطير أربعة أشهر تحف بى الفتیان والجوارى، ولم أكن أغادر القصر طوال هذه الأشهر الأربعة...  
هكذا عاش بوذا طفولة سعيدة مدللة مرفهة، وعندما شب عوده زوجه والده بفتاة جميلة حسناء. أنجبت منه ابنة الوحيد «راهولا»، اجتمعت كل وسائل الراحة والسعادة والهناء الدنيوية لبوذا ومع ذلك لم يكن يشعر بالسعادة الكاملة. كان كثير التأمل، محبا للوحدة وحاول والده أن يصور له الحياة جميلة رائعة ناعمة، وأن يبعد عنه الأخبار السيئة عن الكوارث - المصائب والأمراض والموت - التى يعانى منها الإنسان فى كل مكان مهما بلغت مكانته وثروته، كان والد بوذا يعمل على الحفاظ على ابنه الوارث الوحيد للإمارة والمال والجاه، ولكن الابن استسلم لتأملاته العميقة فى الحياة وخرج مرة من القصر مع سائق عربته «تشنا» فرأى رجلا مسنا أضناه العمل والتعب فسأل سائقه عن حقيقة هذا الرجل فعرفه بأن هذا العالم ملئ بالمساكين والغلبة فحزن الأمير بوذا حزنا شديدا على هذا الرجل.. وخرج مرة ثانية من القصر فرأى مريضا تملك منه المرض، وحوله إلى هيكل عظمى، ولاحظ سائق عربته الدهشة التى ارتسمت على وجهه فقال له: لا تشغل بالك بهذا لأن العالم حافل بالمرضى. والمرضى تجربة إنسانية صعبة وليس لنا حيلة إلا أن نحاول العلاج وتقبل واقع الحياة.. وخرج مرة ثالثة بعربته للاستحمام فى النهر، وفى الطريق أجفلت الخيل فجأة حين

رأت جثة رجل متعفنة ملقاة فى حفرة على جانب الطريق ، تفوح منها رائحة كريهة جدا ، ففزع الأمير بوذا لأنه لم ير مثل هذا المشهد من قبل ، ولا يعرف عن الموت شيئا ، وتدخل سائقه «تشنا» وقال له : إن قانون الحياة يحتم الموت كنهاية لكل شىء انتظار كل الأحياء ، ولا مفر من الموت.. وعاد بوذا إلى قصره مهموما حزينا ، ومن عجب أن تصدح الموسيقى فى القصر وتعم الفرحة ، فقد أنجب بوذا طفلا سعيدا «رهولا» بعد زواج دام عشر سنوات ، لكن الأمير لم يشعر بالفرحة وعاش مع همومه ومشاهداته الإنسانية الصعبة ، وجلس وحده يتأمل فى حقيقة هذه الحياة ، والشيخوخة والمرض والموت ، وتأكد أن الحياة فى مجملها وواقعها عذاب وآلام ومعاناة ومكابدة وأمراض وفقر واحتياج ثم موت فى النهاية لا بد منه مهما عاش الإنسان وعمر فى هذه الدنيا.. احتقر بوذا حياته الناعمة الجميلة السهلة لرغبة الغنية لأن هناك غيره يتألم ويتعذب ويتضور جوعا ويعانى من الألم والمرض ، وقرر أن يغير حياته هذه ويترك القصر ويعيش حياة الفقراء والشحاذين ، واعترف لوالده برغبته ورفض طبعا فى البداية . لكنه استسلم أمام رغبة ابنه الشديدة وقراره النهائى ، أخذ بوذا يعد العدة للرحيل لبدأ حياته الجديدة ورسالته التى آمن بها وهى محاولة إيجاد حلول للمشاكل الإنسانية الكبيرة : الشيخوخة والرخد والحزن والفقير ، وفى إحدى الليالى القمرية طلب بوذا من خادمه الأمين أن يعد جواده للخروج ، وذهب ليلقى نظرة على زوجته وابنه المولود منذ أسبوع فقط ، سار بوذا

بعد ذلك مع سائقه ثم اجتذ شعر رأسه بحد سيفه، وخلع ثيابه الملكية وأعاد الجواد وخصلة من شعره إلى أسرته مع سائقه، وارتدى رداء أصفر اللون أصبح فيما بعد شعار البوذيين وزيتهم.

هكذا ضحى بوذا بحياته العائلية وسعادته ورفاهيته من أجل أن يبحث عن حلول لمشاكل الإنسان، وكانت تضحيته كبيرة لكنها رغبته الشخصية وسعادته الجديدة، كان عمره في ذلك الوقت حوالى الثلاثين ربيعا، لذلك كان يعرف ماذا يفعل، وهو شاب فى شرح الشباب والعقل، بدأ حياته النسكية بنوع من التقشف والصوم حتى هزل جسده وضعفت صحته، ثم تدارك هذا الأمر بعد ذلك وآمن بنظرية الوسط، فالتقشف والصوم الكثير يضعف الجسد ويمنعه من أداء أعماله، والقيام برسالته، وبدأ يتناول الطعام «أرز ولبن خاثر».

عاش فى الكهوف والتلال يبحث عن هدفه، ثم قصد الغار الذى يقيم به البرهمى آلارا، ودرس (الفيدا والأوبانيشان) وهى كتب مقدسة عندهم، وأعجب النساك بهذا الناسك الجديد الذى ضحى بالدنيا والثروة والأسرة فى سبيل الروح وسعادة الإنسان، كان بوذا يذهب كل يوم إلى المدينة بلباسه الأصفر يطلب من الناس المساعدة وشيئا من الطعام ليسد رمقه ويذل نفسه، وبعث له والده أن يعود إليه لكنه رفض. لم يستمر بوذا مع «آلارا» وبحث عن معلم آخر فذهب إلى «أوداكا» وقد استفاد من الاثنين لكنه انطلق أخيرا وحده يعلم الناس ويطلبهم بخلاص نفوسهم، وكان بسيطا وواضحا فى تعاليمه، التف حوله التلاميذ والمريدون فكان يخاطبهم قائلا:

سعيداً من خلت نفسه من سوء لنية، وملك زمام أمره، واهتدى إلى الطريق المستقيم. وأسمى ضروب الحرية هي الخلاص من أوهام الذاتية، لاتستسلموا للحزن لأنه لون من ألوان الجهل.. كونوا سراجاً تستضيء به نفوسكم واستمسكوا بالحق واجعلوه نراساً لكم.. إن الفساد والانحلال كامنان في جميع الأشياء فاعملوا بجد ومثابرة على خلاص نفوسكم.. امتنعوا عن فعل الشر وتعلموا كيف تفعلون الخير وطهروا قلوبكم.. ولاتقبلوا كل ما ينقل إليكم و يروى لكم ولا تستسلموا للتقاليد بل اعموا عقلكم في كل ما يقدم ويقال لكم.. إن القضاء على الجشع والقضاء على الكراهية والقضاء على الوهم نك كلة هو «النرفانا» فالنرفانا هي القضاء على الشهوات. والتغلب على الجهل والخوف والغضب. وكل ما يجعل الحياة عبئاً ثقيلاً، وهي أسمى مراتب الاستنارة الفكرية والسيطرة التامة على النفس.. داؤوا جراحاتكم أيها المجروحون، وكلوا حتى تشبعوا أيها الجاشعون. واستريحوا أيها المتعبون، أرووا ظمأكم أيها العطاشى. واشخذوا بأبصاركم إلى النور أيها الجالسون فى الظلام. وليغمر السرور قلوبكم يا من خانهم الحظ، وتنكرت لهم الأيام..».

هكذا كان بونزا يتحدث إلى سامعيه وتلاميذه، ولم يرفض أن ينضم إليه أحد، بل كان يقبل الجميع بغير تفریق الأغنياء والفقراء، الرجال والنساء، ولم يسلم من بعض المضايقات فهذه امرأة حسناء جميلة باعت نفسها للشيطان جاءتته لتغريه بجمالها وتحوله عن طريقه، لكنها حينما رآته جالسا مضموم ايدين والقدمين، مستغرقا

فى التفكير الهادئ. بكت وارتمت عند قدميه، وأصبحت سدة من أتباعه، وتكاثرت الجموع حوله واتبع مذهبه الكثيرون.

وتذكرنى حياة «بوزا» بحياة «أبو الفيلسفة سقراط»، فسقراط هو أول من أنزل الفيلسفة من السماء إلى الأرض وجعلها تفيد الإنسان فى حياته. وبوزا كانت تعاليمه بسيطة واضحة من أجل الإنسان، وقد سأله أحد تلاميذه يوما هل العالم قديم أو حديث؟ وهل هو أبدي أم له نهاية؟ وهل النفس خالدة أم غير خالدة؟ أجاب بوزا: هذه الأسئلة قيد من القيود ولا تؤدى إلى خلاص النفس.. وسأله تلميذه أيضا: هل لبوزا بعض النظريات الخاصة به؟ أجابه: «إن بوزا خلو من كل النظريات.. فبوزا وسقراط اهتما بالإنسان ورفضا الميتافيزيقا، أى ما بعد الطبيعة. كذلك عاش الاثنان فى زمن متقارب هو القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد، سقراط فى أثينا باليونان. وبوزا فى الهند.

لم يهتم بوزا بالإنسان فقط. وإنما بالحيوان أيضا. فحينما حاول الملك بمبيسارا تقديم الماعز قربانا للآلهة اعترض بوزا ومنعه من ذلك.. ومجمل آراء بوزا هى أن معرفة الإنسان بحياته وتأمله فى حقيقتها تدفعه إلى عمل الخير والإيمان بحقائق أربع وضحاها فيما يلى:

الحقيقة الأولى: الحياة فى حقيقتها ألم وشقاء ومعاناة.

الحقيقة الثانية: سبب الألم والشقاء هو التعلق باللذة والحياة.

الحقيقة الثالثة: استئصال شهوة حب الحياة فيه استئصال للألم والوصول إلى النرفانا «الحياة دون ألم أو شهوة».

الحقيقة الرابعة: اتباع تعليمات وأقوال بوزا تحقق ذلك.

أما الطريق الذى يساعد على ذلك فهو ينقسم إلى ثمانى  
مراحل:

الاعتقاد الصحيح.. القصد الصحيح.. القول الصحيح.. الفعل  
الصحيح.. وسائل العيش الصحيحة.. المعنى الصحيح.. الذاكرة  
الصحيحة والتأمل الصحيح.

عاش بوذا ثمانين سنة يدعو الناس إلى التأمل فى الحياة وحب  
الإنسان وعمل الخير والبعد عن الشهوات واللذات واحتقار الشر.. سأله  
أحد تلاميذه وهو فى هذه السن:

أيعيش سيدى المبجل عيشة سعيدة؟

أجابه بوذا: نعم أيها الشاب، إنى من عداد السعداء فى الدنيا..  
وأثبت بوذا بذلك أنه يطبق تعاليمه على نفسه، وأنه صاحب رسالة  
حقيقية، ومات بعد ذلك، واحتفل أتباعه بحرق جثته واحتفظ بعظامه  
على أنها آثار مقدسة، وشيد حول كل قطعة من هذه العظام مكانا مقدسا  
للعبداء نما على مر الأيام حتى أصبح هيكلا ضخما من هياكل البوذية؛  
ولم يترك بوذا وراءه تعاليم مكتوبة، كما أن شريعة «بالي» - اللغة  
البالية Pali هى اللغة الهندية التى كان يتحدث بها بوذا - التى  
تتضمن هذه التعاليم لم يقدر لها التدوين إلا بعد وفاة بوذا بوقت طويل،  
وتتألف الكتب التى تضم شريعة بوذا من ثلاث مجاميع تعرف باسم  
السلال الثلاث، سلة النظام، وتشمل القواعد والنظم التى يسير عليها  
الرهبان فى حياتهم، والثانية هى سلة العظات، تشمل تعاليم بوذا،

والثالثة سلة العقائد وتضم مسائل فلسفية مختلفة وهى التى يتداولها أفراد الطائفة بوجه عام.. ومن الملامح الرئيسية للبوذية أنها خالية من أى نوع من أنواع التعبد والصلاة المألوفة فى الأديان الأخرى، فالبوذى لا يبتهل إلى إله ما ولا يسأل أية قوة غير منظورة العون والتوفيق، ومن هنا فليست البوذية ديانة وإنما هى طريقة حياة، وفلسفة أخلاقية. وبوذا نفسه عندما ترك قصر والده والترف ليعيش حياة البساطة والفقر ويبحث عن حل للشيوخوخة والموت والمرض والحزن لم يكن يعلم أنه سيكون صاحب مذهب.

هكذا توصل بوذا بعد تأملاته فى الحياة إلى الحقائق الأربع التى ذكرناها، أما الحقيقة الرابعة والمهمة فهى أن يسلك الإنسان الطريق الصحيح فى هذه الحياة حتى يقضى على حب الحياة الفانية والتعلق بها، أما كيف يحدث هذا؟ فباتباع التعاليم التالية التى يذكرها عبد العزيز محمد الزكى فى كتابه قصة بوذا وهى:

يجب أن تكون صفى النية، طاهر الطوية، لا تُكن للغير أى شر أو حقد أو حسد، تحب الخير للجميع، تتجنب الكذب والنفاق والرياء والنميمة والغيبة، تتوخى الصدق فى القول، لا تسب أحدا، لا تعتدى على سلوك الغير، لا تقتل أى كائن حى، لا تسرق، لا تغش، لا تتناول المسكرات أو المخدرات، لا تزنى، لا تعتمد فى تحقيق أهدافك إلا على أفعالك فقط.. من يفعل ذلك يكون قد وصل إلى مرتبة من الوعى السليم الصالح، فيستطيع أن يتحكم فى الانفعالات الجامحة والمشاعر المضطربة

والرغبات الملحة والأفكار الشريرة. بفضل ما اكتسب من خصال خلقية عديدة. ويصل إلى درجة من الطهارة يكون فيها الذهن صافياً تماماً حتى يرقى إلى مرحلة «النرفانا» حيث الهدوء المطلق والسكينة التامة والراحة الكاملة.

البوذية لا تعترف بأية قوة عليوية أو بأى إله أو بأية قوة وراء الطبيعة وإنما هي تركز على ذات الإنسان وعلى قدراته. وترفض مناقشة قضية نهاية العالم.. يقول بوذا:

حياة الإنسان نتيجة حتمية لأعماله السابقة فهو لذلك مسئول عن حياته الحالية مسئولية كاملة، فإنه يمكنه أن يرفع من قيمتها أو يحط من شأنها بأفعاله وسلوكه. فليس للتدر أو للحظ دخل ما فيما يتمتع به من جاه أو سلطان. وليس للصدفة أو البخت أثر ما فى شقائه وفقره وجعله. وإنما سلوكه فقط هو الذى يعاقبه أو يثيبه. وهذه أيضاً ما تقول به الفلسفة الوجودية التى انتشرت فى النصف الثانى من القرن العشرين على يد الفلاسفة، جان بول سارتر وألبير كاسى وغيرهما، وكانت تقول إن الإنسان يملك الحرية الكاملة وله أن يختار حياته، وبذلك فحياته هو الذى اختارها وهو مسئول عن نفسه.

وهكذا نظهر بوادر الفلسفة الوجودية الحديثه عند أتباع البوذية فى القرن السادس قبل الميلاد.

على الرغم من إعجابنا ببوذا وتعاليمه المتمثلة فى حب الخير والتمسك بالقيم الأخلاقية العليا إلا أن هناك بعض الأفكار التى

نوافق عليها، ولا تتماشى مع الفكر الحديث، والتي يذكرها «أحمد الشنتناوى» فى كتابه (الحكماء الثلاثة) سلسلة اقرأ العدد ١٢٣. فبوذا يقلل من قيمة المرأة وينظر إليها على أنها كائن أقل قدرا ومكانة من الرجل، وهذا على عكس المعاصرين الذين يقدرون المرأة حق قدرها. ونحن نعتبر المرأة مساوية للرجل تماما ونرفض أى فكر يحط من قدرها أو ينال من مكانتها.

ويحسب لبوذا أنه كان يدعو للحب والخير والرحمة وخلص النفوس، وأيضا كان يدعو إلى مقاومة الحزن، ويعلم أتباعه مقاومة الاستسلام للحزن أو قبوله والاستراحه إليه. لأن الحزن فى رأيه لون من ألوان الجهل، والحزن.. يجلب على الإنسان أمراضا كثيرة، ومن هنا كانت معظم تماثيل بوذا ضاحكة، بل غارقة فى الضحك.

بعد رحيل بوذا عن ثمانين عاما سجل المؤرخون ١٨ نوعا من البوذية، وعندما قم الإمبراطور: أشوكا فى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد بتكوين الإمبراطورية الهندية وقتل مائة ألف إنسان فى سبيل ذلك أنبه ضميره على ما فعل فتحول إلى البوذية وجعل الهند بوذية أساسا، ولكن سرعان ما انحسر نفوذ البوذية فى الهند نتيجة السخط العام على كهنتها وورهبانها الذين أثروا وفسدت ذممهم ولم يعد فى الهند سوى أقل من واحد فى المائة من الشعب بوذيون، ومنذ ألفى سنة وحتى هذا الوقت، انشقت البوذية إلى مذهبين: الأول هو مذهب المحافظين أو المتزمتمين ويدعى (هينايانا) أو عقيدة القدماء. والمذهب الثانى هو مذهب المتحررين أو المجددين ويدعى (ماهاياتا). وعلى الرغم من

هذه الانقسامات فإن المؤرخين يؤكدون أن البوذية لعبت دورا بارزا فى مقاومة الاستعمار فى آسيا فى القرن التاسع عشر وفى حرب البوكر فى الصين، كان المقاومون للتدخل الاستعماري يرون فى الرهبان البوذيين درعهم الذى يقيهم من رصاص المستعمرين وفى الهند الصينية وفى بورما وفى مناطق آسيوية عديدة أصبحت البوذية، كما تقول مجلة الأهرام للمعلومات وهى نشرة دورية سنة ١٩٩٧، أصبحت علما على النضال الوطنى ضد الحكم الاستعماري، وأصبح المعبد البوذى فى القرية هو مركز الحياة فى الريف وملجأ المناضلين وقلعة حماية الثقافة الوطنية. ويرى المفكر الهندى (واديا) أن من سوء حظ الهند خروج البوذية منها، لأن البوذية بنزعتها الإنسانية تقاوم نزعة التفريق بين الطبقات التى عاقت نهضة الهند، وصدعت وحدتها، وجعلتها هدفا للغزاة والمستعمرين وأضعفت فيها قوة المقاومة.

ويتساءل الأستاذ على أدهم فى كتابه (صور أدبية) إصدار الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٧. هل بوذا مُوجد دين أو خالق فلسفة حياة؟

ويجيب أن هذا يتوقف على مدى فهمنا لمعنى الدين ومعنى الفلسفة، فإذا كان المقصود بالدين الإيمان بقوة علوية محيططة بنا متصرفة فى أقدارنا ومصائرنا وقبول طائفة من المعتقدات على أنها حقائق كشفت لنا فإن بوذا بمقتضى هذا التفسير لم يكن صاحب دين. فهو صاحب فلسفة أكثر بكثير مما هو صاحب دين.

لا يوجد إحصاء دقيق لعدد البوذيين في العالم، وإنما تتفاوت التقديرات من مائة مليون إلى ثلاثمائة مليون إلى خمسمائة مليون، وتقدر الموسوعة البريطانية عدد البوذيين في العالم بمائة وخمسين مليون وثلاثمائة وعشر آلاف نسمة. ويوجد البوذيون في بورما حيث يكوّنون ٩٠٪ من السكان وفي تايلاند حيث يكونون ٨٠٪ وفي سيريلانكا ٦٠٪ وفي اليابان ٦٠٪ وهذه هي البلاد التي تعتبر البوذية فيها هي الدين الرسمي للدولة. ويبلغ عدد البوذيين في الصين ١٧٪ من السكان، وفي أمريكا الشمالية ١٦٥ ألف بوذي وفي أمريكا الجنوبية ١٣٥ ألف بوذي وفي أوروبا عشرة آلاف بوذي، وهذه الأرقام آخر إحصاءات أجريت في ستينيات القرن الماضي.

وما زالت البوذية تنتشر في العالم وبخاصة في آسيا، وتنتشر تعاليم المُصلح بوذا العظيم في الحب والتسامح والتواضع والصبر والاحتمال والعطف والشفقة ورقة الأخلاق والعفة والطهارة وعمل الخير. ألا يستحق بوذا العظيم أن يكون أحد عباقرة العالم الذين يعيشون في الذاكرة.. ذاكرة كل إنسان في كل مكان وكل زمان.

